بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 11 ديسمبر 2015

الحيوان

من النصوص المقدّسة إلى النصوص الحوافّ:

قراءة في التحوّلات

نجم الدين النفّاتي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2015
All rights reserved © 2015

الملخّص:

تبقى العلاقة بين النصّ المقدّس والنصّ الهامش علاقة وطيدة، فالنصّ الثاني يحاول شرح ما ورد في النصّ الأوّل وتفسيره ودعمه. وبين النصّين مساحة من الفهم تولدها هجرة المعاني، فتعمل المخيّلة الجماعيّة على الاحتفاء بالمعنى المختصر في النصّ المقدّس وجعله نواةً تدور في فلكه عديد المعاني الأخرى. فتحافظ الجماعة على عنصر القداسة التي ترى أنّ وجدودها يكمن ضرورةً في حضور العجيب والخارق، لذلك فإنّ عملية الأسطرة تجد فضاءها ومبرّرها داخل هذا النزعة الإيمانيّة. ومثل هذه الأعمال قد تجعل المعنى يخرج من سياقه الأوّل (الأصل) ليكتسب هويّة السياق الثاني (الهامش)، وهذه محنة الفكر الدينيّ في أغلب تجلّياته، فيُترك الأصل ويتمّ التعويل على الهامش. وقد رمنا خلال محاولتنا هذه التدليل على مثل هذا الإشكال من خلال دراسة صيرورة الحيوان وما تحمله من تغيّرات وتحوّلات أثناء رحلتها من النصّ الأصل إلى النصّ الهامش، وقد اخترنا قصص الأنبياء لما في هذه النصوص من كثافة مادة تدلّ على حشد العجيب من أجل إرضاء المتقبّل، ولا مبررّ لهذا النوع من العجيب غير قاعدة "الله على كلّ شيء قدير" وهي القاعدة التي تشتغل في سياقها مخيّلة الجماعة المؤمنة، فكلّما كان العدول بالمألوف عن سياقه كان الاحتفاء بحضور الفعل الإلهيّ أوضح. فلو سلمنا بالمصدر الإلهيّ للنصّ الأوّل فإنّ النصّ الثاني مجال لاشتغال المخيّلة البشريّة في سياق تشكيل ملامح منظومتها الإيمانيّة.

مقدّمة:

يلاحظ دارس المنتج الثقافي - الدائر في فلك النصوص المقدّسة - كثرة المواضيع والمقاربات وتنوعها، فالجماعة المؤمنة تحاول الاشتغال على تفسير ما ورد في كتبها وتوضيحه، مستنجدة في ذلك بآليات التواصل الثقافي. فكانت نصوص التفسير التي اشتغل أصحابها على توضيح ما ورد في النصوص المقدّسة، وكانت كتب السير التي وظفها أصحابها للحديث عن التاريخ المقدّس للرسل والأنبياء.

أمّا إذا ما نظرنا في مجال بحثنا، فإنّنا نلاحظ أنّ صورة الحيوان قد خضعت إلى عديد التحوّلات، التي صحبت تحوّلها من النصّ المركز إلى النصوص الحواف. ففي مستوى النصوص الحواف تشتغل المخيّلة الجماعيّة من أجل إنتاج مادة ترضي مقاربتها الإيمانيّة، وتكون محفوفة بالعجيب مجال الفعل الإلهيّ. فيكون الحديث عن الأخبار المقدّسة "وهي قصص كانت مختلف الشعوب الإنسانيّة تحكيها قديمًا في بعض المناسبات وتعتقد أنّها قصص حقيقيّة تروي وقائع وأحداثًا حصلت بالفعل في يوم من الأيام الماضية."[1] ففي قصص الأنبياء والقدّيسين نلمس حضورًا لهالة من القداسة والتمييز الإيجابيّ لهذه الفئة من البشر في مستوى الفعل الخارق، فهم فئة من المختارين ميّزها الله بقداسة الفعل، لذلك لم تجد مخيّلة القصّاص ورواة السيّر حرجًا في نسبة الغريب من الأفعال إليها. ولم ينج الحيوان من تأثيرات هذه المعادلة، فنجد العديد من الحيوانات تخرج عن وضعها المألوف، لتخضع إلى تحوّلات في مستوى السلوك، أو في مستوى اللسان. وهو تحوّل يستمدّ شرعيته من المقام القصصي والسلطة الدينيّة، باعتبارهما العنصرين المحفّزين لملكة الخيال في إنتاجها للغريب واللامألوف. فالحيوان المتكلّم في النصوص المقدّسة (الهدهد، النملة، الأتان) تتكاثف صورته وعدده، فنجد ظاهرة كلام الحيوان من العناصر الثابتة في قصص الأنبياء والقدّيسين، والحيوان المسخّر للإنسان في النصوص المقدّسة يصير صورة واضحة في مستوى القصص، فيخرج السبع عن عدوانيته ليصبح كائنًا مسالمًا خاضعًا لسلطة النبي أو القديس.

فما هي تجلّيات هذه التحوّلات؟

[1]- بن حمادي (صالح)، دراسات في الأساطير والمعتقدات الغيبيّة، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1983، ص 10

1/ حيوان محمّد: من الغياب في المركز إلى الحضور المكثّف في الهامش:

وقفنا في قراءتنا للنصوص المقدّسة عند ظاهرة اقتران اسم أغلب الأنبياء بحيوان من الحيوانات، (حيّة موسى، هدهد سليمان، أتان بلعام، حوت يونس، ناقة صالح...) فكان الحيوان مجرى المعجزة، وسندًا له في مواجهة خصومه، وحجّةً على نبوّته. غير أنّ هذا الأمر غاب في النصّ القرآنيّ عن رسول الإسلام ونبيّه. لذلك فإنّ الجماعة المؤمنة (مفسّرينَ وقصّاصًا ورواةَ حديث...) لم يتركوا هذه الفجوة فارغة، بل سعوا إلى طمرها وشحنها بروايات من شأنها أن تسّد حاجة القارئ المسلم. "بل راح ـ تحت غطاء الدّين- يولّد كمًّا هائلاً من الخوارق والنماذج القديمة توليدًا جنونيًّا فوضويًّا يثير الفكر الموضوعيّ ويتحدّى العقلنة ويفرض منطقًا خاصًّا يستعصي على المحاسبة والعقل، بل سعى من منظوره إلى إعطاء أساس عقلانيّ للخرافيّ والخياليّ وغير الموضوعيّ."[2] فكان ذلك سببًا في تكثيف العلامات الدالة على نبوّته وما جرى على يده من معجزات في مجال تعامله مع الحيوانات على اختلاف أصنافها. فكانت تأتيه ذلولاً مطواعةً، في جوّ من سحر الغريب وفتنة السلطة الربّانية. يحضر الغريب عبر آليّة الخرق والمفارقة، فالحيوان يخرج عن حالته الطبيعيّة ليتصرّف على غير ما جرت عليه المقولات المنطقيّة للمعيش اليوميّ. وتبقى القدرة الإلهيّة والكرامات الموهوبة إلى رسول الإسلام السند في كلّ التحوّلات والخروقات، فليس أمام المستمع أو القارئ إلا التصديق والتهليل والتقديس. فما هي الكرامات التي حظي بها محمّد في تعامله مع الحيوان؟ وما هي التحوّلات التي عاشها الحيوان؟

1/1: الحيوان يكلّم رسول الله:

ورد في الأحاديث أن النبيّ محمّدًا تواصل مع بعض الحيوانات، وكلّمها. فكان يفهم عنها وتفهم عنه، بل تكلّمت بلسان عربيّ مبين سمعه وفهمه الحاضرون. وهو ما يعني أنّ الحيوان خرج من حالة البكم أو العجمة إلى حالة النطق، وهذا التحوّل يعود في أساسه إلى قدرة خارقة امتلكها الرسول دون غيره من البشر العاديين.[3] ذكر ابن كثير في مؤلّفه "البداية والنهاية" أنّ محمّدًا استنطق ضبًّا فنطق وشهد له **بالرسالة**، و"عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنّ رسول الله كان في محفل من أصحابه فجاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً وجعله في كمه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله فلما رأى الجماعة، قال: ما هذا؟ قالوا: هذا الذي يزعم أنّه

[2]- طراد (فريدة)، الحيوان في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ص 464

[3]- ذكرنا البشر العاديين لأنّ في الثقافة الإسلاميّة أناسًا لهم كرامات، مثل المتصّوفة وأولياء الله الصالحين، وقد ورد في القصص أنّ بعضهم كلّم الحيوان، يقول القشيري: "سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سمعت أبا نصر السرّاج يقول: سمعت الحسين بن أحمد الرازي يقول: سمعت أبا سليمان الخواص يقول: كنت راكبًا حمارًا يومًا، وكان الذباب يؤذيه، فيطأطئ رأسه فكنت أضرب رأسه بخشبه في يدي، فرفع الحمار رأسه وقال: اضرب، فإنّك على رأسك هو ذا تضرب.

نبي: فجاء حتى شق الناس: فقال: واللات والعزى ما اشتملت النساء على ذي لهجة أبغض إليّ منك ولا أمقت ولولا أن يسميني قومي عجولاً لعجلت عليك فقتلتك فسررت بقتلك: الأسود والأحمر والأبيض وغيرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: دعني فأقوم فأقتله. قال: "يا عمر: أما علمت أنّ الحليم كاد أن يكون نبياً" ثم أقبل على الأعرابي فقال: "ما حملك على أن قلت ما قلت؟ وقلت غير الحق؟ ولم تكرمني في مجلسي؟" قال: وتكلمني أيضاً؟ استخفافاً برسول الله، واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب وأخرج الضب من كمه وطرحه بين يدي رسول الله فقال رسول الله: "يا ضب؟ فأجابه الضب بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال: "من تعبد يا ضب؟" قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه: قال: "فمن أنا يا ضب؟" قال: رسول الله رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وقد خاب من كذبك. قال الأعرابي: لا أتبع أثراً بعد عين والله لقد جئتك وما على ظهر الأرض أبغض إليّ منك، وإنّك اليوم أحب إليّ من والدي ومن عيني."[4]

ومن قصص حديث الرسول محمّد مع الحيوان أورد البيهقي في دلائل النبوّة "عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: مر رسول الله بظبية مربوطة إلى خباء فقالت: يا رسول الله: حلني حتى أذهب فأرضع خشفي، ثم أرجع فتربطني، فقال رسول الله: "صيد قوم وربيطة قوم" قال: فأخذ عليها فحلفت له فحلها فما مكثت إلا قليلاً حتى جاءت وقد نفضت ما في ضرعها فربطها رسول الله، ثم أتى خباء أصحابها فاستوهبها فوهبوها له فحلها ثم قال رسول الله: "لو علمت البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً أبدا"[5]. ويمكن أن نقف في المرويات أيضًا عند قصّة الذئب الّذي شهد لمحمّد بالرسالة، [6] والذئب الّذي جاء يستفرض.[7] والأمثلة عديدة.

يبدو لنا الحيوان في هذه المرويات قد عدل عن طبيعته، فأصبح ناطقًا بلسان بشريّ، يُسأل فيجيب، ويعد فيفي، وفي ذلك مجرى الإعجاز والقدرة الإلهيّة التي تتحوّل إلى دليل على خروج محمّد نفسه عن دائرة البشر

---

[4]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج1، ص 146

[5]- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، دلائل النبوّة، تحقيق عبد المنعم قلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط1، 1988، ج6، ص 334

[6]- **الذئب يتكلم ويشهد بالرسالة**: "عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟ فقال: يا عجبي ذئب يكلمني كلام الإنس ! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد بيثرب يُخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله فأخبره فأمر رسول الله فنودي: الصلاة جامعة ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم فأخبرهم. فقال رسول الله: "صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يُكلم السباع الإنس، ويُكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويُخبره فخذه بما أحدثه أهله بعده ".] حديث صحيح: أخرجه أحمد (3/83-84). وبعضه في الترمذي في الفتن، ورواه البيهقي في الدلائل.

[7]- روى البيهقي في مؤلّفه دلائل النبوّة: "عن حمزة بن أبي أسيد قال: خرج رسول الله في جنازة رجل من الأنصار بالبقيع، فإذا الذئب مفترشاً ذراعيه على الطريق، فقال رسول الله "هذا جاء يستفرض فافرضوا له"، قالوا: ترى رأيك يا رسول الله قال: "من كل سائمة شاة في كل عام" قالوا كثير. قال: فأشار إلى الذئب أن خالسهم فانطلق الذئب. ورضي الذئب بأن يأخذ منهم الشاة خلسة كما عرض عليه رسول الله." (ج1، ص 338)

العاديين، كي نصبح أمام معادلة التحوّلات التي يدور بعضها في فلك بعض. رسمت ملامحها ومشروعيتها ثقافة تقوم على حشد العجيب في وعاء المقدّس اللامفكّر فيه. غير أنّ بعض القراءات نبّهت إلى خطورة ذلك في مستوى العقيدة، وحسبنا أن نذكر في مثل هذا المقام ما ذهب إليه الجاحظ: "وقد روى النّاس عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم في كلام السّباع والإبل ضروبًا، ولم يذهبوا إلى أنّها نطقت بحروف مقطّعة، ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم إمّا أن يكون الله أوحى إليه بحاجتها وإمّا أن تكون فراسته وحسّه وتثبّته في الأمور، مع ما يحضره الله من التوفيق، بيّن له معانيها وجلاّها له، واستدلّ بظاهر على باطن، وبهيأة وحركة على موضع الحاجة، وإمّا أن يكون الله ألهمه ذلك إلهامًا."[8]

ويبقى هذا التحوّل من العجمة إلى النطق على اختلاف الرأي فيه علامة مميّزة لاشتغال مخيّلة الجماعة المؤمنة الأولى في الاحتفاء بالجانب الإعجازيّ لدى رسولهم، ومحاولتهم سدّ الثغرات التي لم يسدّها الخطاب المركزيّ (القرآن). وهذا النوع من الخطابات ليس بغريب عن ديانة ترى أنّ كلّ ما في الكون يسبّح لله ولكن لا يفقه البشر تسبيحه.

2/1: الضرع الجاف يدرّ لبنا:

ورد في بعض الأخبار أنّ الرسول محمّدًا مسح ضرع شاة منهكة القوى مجهدة، قد جفّ لبنها فدرّ، فشرب ومن معه. "عن أبي معبد الخزاعي أنّ النبي خرج ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط... ثم مرّ رسول الله في مسيره ذلك حتى مر بخيمة أم مَعبَد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تُطعم وتسقي من مر بها، فسألها: "هل عندك شيء؟" فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى. والشاء عازب (أي بعيدة المرعى) وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله إلى شاة في كِسر الخيمة، فقال: "ما هذه الشاة يا أم معبد؟" قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: "هل بها من لبن؟" قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: "أتأذنين لي أن أحلبها؟" قالت: نعم بأبي وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ضرعها، وسمّى الله ودعا فتفاجت عليه (أي فرّجت ما بين رجليها) ودرّت، فدعا بإناء لها يُرضي الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، فارتحلوا، فقلما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً (أي هزالاً) يتساوكن (أي يتمايلن من شدة ضعفهن)

[8]- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص ص 218- 219

هزالاً لا نقى بهن (النقي مخ العظم أي لا قوّة فيهنّ) فلما رأى اللبن، عَجِب فقال: من أين لك هذا؟ والشاة عازب، ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مُبارك كان في حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا."[9]

ومثل هذه القصّة تتكرّر في موضع آخر، "عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله وقال لي: "يا غلام، هل من لبن؟" فقلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: "فهل من شاة حائل لم ينز عليها الفحل؟" قال: فأتيته بشاة حائل فمسح ضرعها فنزل لبن، فحلبه في إناء وشرب، وسقى أبا بكر ثم قال للضرع: "اقلص" فقلص قال: ثم أتيته فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: "يرحمك الله فإنّك عليم معلم".]الحديث أخرجه أحمد وابن سعد في الطبقات.

اختلفت الروايتان في بعض التفاصيل غير أنّهما اشتركتا في فعل التحوّل الّذي طرأ على الحيوان، فالوضع الطبيعيّ للشاة في الروايتين الإمساك عن الدرّ، الأولى منعها الإجهاد وكبر السنّ والثانية عدم الحمل. فكان حضور الرسول العامل المساهم في تحوّل الوضع، وتغيّر الحال. وما ذلك بعزيز على فكر يشتغل داخل دائرة العجيب المقدّس، فلو أجلنا النظر في الروايتين ستطالعنا خيوط خفيّة تشدّ وثاقها إلى منتجات نصيّة شبيهة، حواها النصّ القرآني. فتطالعنا الشاة الأولى صورة ممتدة لصورة الشيخ العجوز وامرأته العاقر التي أنجبت: "قَالَ رَبِّي أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ وامْرَأَتِي عَاقِرٌ. قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ."[10] أمّا الشاة الثانية التي لم ينز عليها فحل فهي صورة ممتدة لصورة مريم العذراء "قَالَتْ رَبِّي أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ."[11] فهذه الجذور النصيّة علامة على طبيعة الفكر الحاضن للخطاب، فقد تختلف الأحداث والمسميّات غير أنّها تبقى تدور في فلك التصوّر والواحد. وهذه الضوابط تعود في أصلها إلى طبيعة تركيبة الفكر المنتج لها والسياج العقدي الراسم للحدود والتطلّعات. فمقولة التحوّل من العجز إلى العطاء نجدها ممتدة في النسيج الروائيّ الدينيّ، وحسبنا أن نذكر أنموذجًا آخر قد يدعم رأينا هذا. ففي قصّة مريم تتحوّل النخلة اليابسة إلى نخلة خضراء يافعة مثمرة، قال الثعلبي: "قالوا: فلمّا اشتدّ بها المخاض التجأت

[9]- ابن كثير، م.ن، ج3، ص 59

[10]- القرآن (3: 40).

[11]- القرآن (3: 47).

إلى نخلة، وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف ولا كرانيف ولا عروق، [...] وحييت تلك النخلة بعد يبسها، فتدلّت غصونها وأورقت وأثمرت وأرطبت."[12]

3/1: الحيوان من العجز إلى القوّة:

من التحوّلات التي طرأت على بعض الحيوانات في المرويات والأخبار، أنّ الرسول محمّدًا استطاع أن يبارك بعضها فيتحوّل وهنها وضعفها إلى قوّة. أورد البيهقي في دلائل النبوّة "عن جعيل الأشجعي – رضي الله عنه – قال: غزوت مع رسول الله في بعض غزواته، وأنا على فرس لي عجفاء ضعيفة، قال: فكنت في أُخريات الناس، فلحقني رسول الله وقال: "سر يا صاحب الفرس"، فقلت: يا رسول الله عجفاء ضعيفة، قال: فرفع رسول الله مخفقة معه فضربها بها وقال: "اللهم بارك له" قال: فلقد رأيتني أمسك برأسها أن تقدم الناس، ولقد بعت من بطنها باثني عشر ألفاً.[13]

ولا يمكننا الحديث عن الفرس دون الحديث عن الإبل، نظرًا إلى طبيعة مكانتهما في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، فما حدث للفرس حدث للناقة أيضًا، أورد البيهقي في هذا السياق: "قال: يا رسول الله أعيتني ناقتي أن تنبعث، قال: فناوله رسول الله يده كالمعتمد عليه للقيام، فأتاها فضربها برجله، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لقد رأيتها تسبق به القائد."[14]

يخرج الحيوان في هذه الروايات من حالة ضعفه ليصير قويًّا ومفخرة لصاحبه. وهذا التحوّل يرد في سياق مباركة الرسول له، فلم تعد الحالة الجسديّة للحيوان المحدّد لسرعته وقوّته بل قدرة الرسول وبركته. فتدخل الرسول في الروايتين صحبه تحوّل في حالة الحيوان، وكان ذلك عبر اللّمس والسند الإلهيّ. وهذا التحوّل لم يكن نحو جديد وإنّما هو عودة الحيوان إلى حالة كان عليها في ما مضى من الزمن، فيسترجع عافيته وقدرته في مستوى الحركة لا البنية. أمّا المنطق المتحكّم في نسيج هذا التحوّل فموجود في رحم السيرة النبويّة ذاتها حيث نجد أنّ الضعيف القليل العدد يغلب القويّ الكثير العدد. إنّه منطق التأسيس والمفارقة.

[12]- الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ص 386- 387

[13]- البيهقي، م، ن، ج6، ص 153

[14]- البيهقي، م.ن، ج6، ص 154

4/1: حيوان الصدقة حيوان الجنّة:

تذهب بعض المرويات إلى أنّ "في الجنّة من الطيور والدواب مالا يعلمه إلاّ الله تعالى، قال تعالى فيما يناله أهل الجنّة من نعيم: "وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ."[15] (الواقعة 21)، وفي سنن الترمذي عن أنس قال: "سئل رسول الله (ص) ما الكوثر؟ قال: "ذكر نهر أعطانيه الله- يعني في الجنّة-أشّد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجُزرِ(الجمال)." قال عمر: إنّ هذه لنعامة، قال رسول الله (ص): "أكَلَتُهَا أنعم منها"، قال المحقق: رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.)."[16] وفي مرويّة أخرى "أخرج أبو نعيم في الحلية، والحاكم في مستدركه عن مسعود قال: "جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه الناقة في سبيل الله. فقال: "لك بها سبعمائة ناقة مخطومة في الجنّة." وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ووافقهما الشيخ ناصر الدين الألباني. ورواه مسلم في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري، قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله (ص): لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلّها مخطومة."[17] وفي رواية أخرى أنّ عبد الرحمان بن عوف لمّا أعطى ناقة لأعرابيّ من بني سليم، بشّره الرسول بجزاء يوم القيامة يكون "ناقة من درّة جوفاء قوائمها من زمرّد أخضر وعنقها من زبرجد أصفر، عليها هودج السندس والاستبرق تمرّ بك على الصّراط كالبرق الخاطف يغبطك عليها كلّ من وراءك يوم القيامة."[18] نلاحظ من خلال هذه النماذج المذكورة أن التحوّل الّذي طرأ على الحيوان في مستوى:

العدد: الناقة المخطومة_____ 700 ناقة مخطومة

الهيأة: ناقة _____ ناقة من درّة جوفاء.

تعود إلى التحوّل في المكان، فالحيوان في حالته الطبيعيّة ينتمي إلى فضاء الدنيا، وفي حالته الثانيّة (حالة التحوّل) ينتمي إلى فضاء الجنّة. وهو تحوّل يحمل في طيّاته خطابًا نفسيًّا قرأته فريدة طراد على أساس "تكفّل العجيب الحيوانيّ، في مستوى الاجتماعيّ، بتحقيق قاعدة أساسيّة من القواعد التي تبني العمران وتنشئ المجتمعات، هي قاعدة التّضامن والتّكافل بين الأفراد."[19] وذهبت في السياق نفسه أيضًا إلى أنّ "وظيفة العجيب

---

[15]- الواقعة 21

[16]- الأشقر (عمر سليمان عبد الله)، الجنّة والنار، دار النفائس/ دار السلام، ط1، 2008، ص 175

[17]- م.ن، ص 175

[18]- المتّقي الهندي (علاء الدين علي بن حسام الدين بن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري)، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع, 1998، ج4، ص 279

[19]- طراد (فريدة)، الحيوان في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ص 431

الحيوانيّ، كما تجلّت في عجيب الجزاء الأخروي، ترضي أفق انتظار العرب المنخرطين في الدين الجديد، وتستجيب للأماني والحاجيات التي كانوا يتطلّعون إلى تحقيقها في وسطهم المادي الثقافيّ."[20] ويمكننا قراءة هذا التحوّل بناء على مكانة الحيوان المتحوّل في نفسيّة أصحاب الخطاب، فالتركيز على العدد يعود حسب رأينا إلى طبيعة علاقته بسيادة (ومكانة) من يملك عددًا وافرًا من الإبل، فمكانة الإنسان في المجتمع العربيّ تقاس بما يملك منها. أمّا التغيّر في الهيأة فيعود إلى طبيعة مكانة الناقة (الإبل) في نفس صاحب الحديث، فكان اختيار أحسن الأوصاف لها وجعلها كائنًا مفارقًا في عالم مفارق، علامة على ضرب من القداسة والتمييز[21] دون أن ننسى أنّ "مشهد الناقة من أكثر مشاهد الحيوان قدرة على خلق المتعة الفكريّة والفنيّة والارتقاء بالمشاعر النفسيّة، لأنّ الإبل غَدت ممثّلة لكثير من الآمال، [...] ووجهًا من وجوه الحياة، وصورةً من صور تفكير الجاهليين وقيمهم. أي إنّ حضور مشهد الناقة يعبّر عن حالة الانجذاب إلى العلاقة الجوهريّة بين الذات والطبيعة الحيّة، وبينها وبين الرموز الفنيّة المحمولة على التشخيص معنى الوجود وإنتاج فضاء الرؤية."[22] فالناقة (الإبل) مكرمة في الدنيا وفي الآخرة.

لم يكن احتفاء الأخبار والسير بعلاقة محمّد بالحيوان مجانيًّا، بل كان متنزّلًا في سياق الاحتفاء بنبوّته ودلائلها. فكان الحديث عن المعجزة والكرامة والبركة، وعن فعل الخرق للمألوف. فكان يتواصل مع الحيوان عبر اللغة فهمًا واستنطاقًا، وعبر المباركة التي حوّلت العاجز إلى قادر، والعقيم إلى ولود، والضرع الماسك إلى مانح...

وكان ذلك متنزّلاً في سياق ردم الفجوات التي تركها النصّ المؤسّس مترعةً، عبر آليّة المتخيّل المتشبّعة بمستلزمات الفكر الحاضن، الّذي تدور في رحابه جميع المقولات. وقد لاحظنا ذلك من خلال تكرار الصور وامتداد جذورها بين النصّ المؤسّس والنصّ اللاحق. فالعلاقات وإن بدت واهية في ظاهرها فإنّها متينة ومحكمة النسج في تفاصيلها. يعوّل الراوي في مثل هذه الروايات على السند المقدّس، فتغيب عنده الحدود بين التاريخيّ والأسطوريّ، بين المعقول واللامعقول، بين المفكّر فيه واللامفكّر فيه. ولكنّه مع ذلك يبقى فكره وخياله مسيّجين بالقدرة الإلهيّة، فهي المنطلق والمنتهى. ويبقى هذا التمشّي مندرجًا "ضمن الرؤية الشموليّة للدين الجديد وتعبّر عن حساسيّة وهواجس وتطلّعات ونمط من الصياغة تبدو ثمرة معطى اجتماعي يتشكّل

[20]- م.ن، ص 431

[21]- نلمس هذا الأمر أيضًا في الحديث عن الفرس (الخيل)، فقد أورد الكسائي في وصف فرس آدم: "خلقه الله تعالى من مسك الجنّة وعنبرها ومزجه بماء الحيوان. عرفه من المرجان وناصيته من الياقوت وحوافره من الزبرجد[...] أسرج سرجًا من الزمّرد وألجم بلجام من الياقوت وأمّا أجنحته فمن أنواع الجواهر." **الكسائي، بدء الخلق وقصص الأنبياء**، ص 117

[22]- حمعة (حسين)، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهليّة، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريّة، 2011، ص 21

تدريجيًّا، وعلامة على تكيّف واستراتيجيا تنمو في الزمن وتوّظف عجيبًا يتبلور في إطار مشروع هو مشروع بناء أمّة، سيتدّخل العجيب لوضع أسسها ورسم معالمها وتجسيد مثلها وقيمها وقواعدها ويقدّم رؤية دنيويّة وأخرى أخرويّة تنظّمان وعيها ونشاطها الاجتماعيين."[23] وضمن رغبة الجماعة في رفع رصيد المعجزات التي أسندت إلى نبيّها ورسولها محمّد، يقول أبو نصر الدين السرّاج: "وكما استحال أن يكون لنبيّ من الأنبياء عليهم السلام شيء من المعجزات إلاّ وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلّم من مثل ذلك أو أتمّ من ذلك وأكثر، فكذلك يستحيل أن يكون في الأمم السالفة لقوم منهم شيء من الكرامات إكرامًا لأنبيائهم إلاّ ويكون في أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم أيضًا لطائفة منهم أكثر من ذلك إكرامًا لمحمّد صلى الله عليه وسلّم."[24]

2/ الحيوان في قصص الأنبياء: تكثيف الحضور ودعم العجيب

احتفى رجال الدين مفسّرين وقصّاصًا باستغلال الإشارات النصّية المتعلّقة بذكر أحد الحيوانات، فنسجوا حولها قصصًا، جعلت الحيوان يخرج من حالة مجرّد الذكر العابر إلى حالة من المركزيّة القصصيّة. فيصبح كائنًا مفارقًا للمألوف وذا ملامح جديدة، مصبوغة بلبوس من القداسة والعجيب. وتتحكّم في نسيج الصورة تلك النظرة الجمعيّة المبطّنة حول فهم قدرة الله وعظمته عند صاحب القصّة (الراوي) والمتقبّل (المرويّ له). فنجد أمامنا كمًّا من القصص التي نسجت تفاصيلها حول بعض الحيوانات، وهي قصص تخترق الخطّ الزمني، راجعةً بالمتقبّل نحو البدايات الأولى، بدايات الفعل الحركي للدعوة الإيمانيّة. ولا يمكن إدراك نسيج هذه التصوّرات بمعزل عن الرؤية العامّة التي تبني في الفكر الدّينيّ نظامًا شاملاً من المقاربات والمطابقات، وترى في التاريخ البشريّ تمهيدًا لظهور الرسالة المحمّديّة وسنعمد في هذه الخطوة من بحثنا إلى رصد التحوّلات التي طرأت على الحيوان في رحلته من النصّ المؤسّس إلى النصّ الحاف.

1/2: إنطاق البكم:

لم يرد في النصّ القرآنيّ حديث عن كلام الحيوان إلاّ في موضعين هما: نملة سليمان والهدهد، وقد ورد حديثهما خاصًّا لا يفقهه الجميع، بل خُصّ بفهمه نبيّ الله سليمان. غير أنّ المتأمّل في بعض النصوص الحواف يلاحظ أنّ القصّاص والمفسّرين أنطقوا الحيوان ونسبوا إليه كلامًا. فجعلوه يجادل ويدافع ويسبّح، يقول حمّادي المسعودي: "إنّ الحيوان يتحوّل في عديد الأمثلة من قصص الأنبياء إلى كائن مُماه للإنسان يتكلّم ويفكّر ويناقش

[23]- طراد (فريدة)، الحيوان في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، ص 426

[24]- الطّوسي (أبونصر السرّاج): اللّمع، تحقيق هند ماهر أبو العطا، دائرة الشئون الثقافية والنشر، 1998، ص ص 398-399

ويساند أفكاره أو يعارضها أحيانًا، وهذا يدلّ على أنّ الراوي أقام تواصلاً عن طريق التحويل بين كائنين لا يتواصلان في الأصل."[25] فأنسنة الحيوان لم تكن في مستوى الشكل بل كانت في مستوى اللسان، "فإذا ما كان السائد في الضمير الجمعيّ أنّ الإنسان هو الكائن الناطق الوحيد، فإنّ بعض الكائنات تُضحي مشاركة له في أهمّ صفة له وهي النطق."[26] وسنعوّل في دراستنا هذه على النصّ الّذي خلّفه الكسائي حول قصص الأنبياء "بدء الخلق وقصص الأنبياء" أنموذجًا، نظرًا إلى ما لمسناه فيه من احتفاء بالحيوان موضوع بحثنا.

يمكننا أن ننطلق في حديثنا عن ظاهرة التحوّل من ثبت مواضع كلام الحيوان في الجدول التالي:

الحيوان (المخاطِبُ)	المخَاطَبُ	الخطاب
الحيّة	إبليس	فقالت الحيّة: أتعطي على هذا القول عهدًا؟ [...] قالت الحيّة: فإن علم بمكانك رضوان ما أعمل؟ [...] كيف أتكلّم إذا كلّمني رضوان؟ (الكسائي ص 119).
الحيّة	آدم/ حواء	كانت تسامرهما، وتخبرهما بكلّ شجرة في الجنّة. (الكسائي ص 119).
الحيّة	الله	التسبيح والتقديس. (الكسائي ص 119)
الحيّة المحدّقة بالعرش	رسول الله محمّد	الخير فيك وفي أمّتك إلى يوم القيامة. (الكسائي ص 97)
الفرس	آدم	فقال الفرس من تحته أحسنت يا آدم لا ينبغي لأحد أن يركبني إلاّ أن يكون عبدًا شكورًا. (الكسائي ص117). - وجعل فرسه الميمون ينادي يا مغرور أهكذا كان العهد بينك وبين ربّك. (الكسائي ص 121).
النسر	الحوت	الإخبار بقدوم آدم إلى الأرض (128)
الحيوانات	آدم	- التعزية والأمر بالتسبيح (130) - التهنئة (132)
الديك	البشر	المناداة للصلاة (ص137)
الديك	الله	التسبيح (137)
المواشي	آل ثمود	يا آل ثمود ألا تعتبرون بما يخرج الله تعالى... وأنتم تكفرون بنعمة الله وتعبدون سواه.؟ (181)
السباع	آل ثمود	إلهنا أنت القويّ الشّديد وهذه ثمود قد كفرت بنعمتك وعبدت غيرك فأرسل إليهم نبيًّا. (181)

[25]- مسعودي (حمّادي)، فنيّات قصص الأنبياء في التراث العربي، ص 423

[26]-المسعودي حمّادي، م.ن، ص 423

الغراب	امرأة كاثوه	ما هربت من صاحبي ولكنّي الغراب الّذي بعثني الله إلى قابيل حين قتل أخاه هابيل فأريته كيف يواري سوءة أخيه... فما لي أراك باكية؟... اتبعيني... (181)
الغراب	كاثوه	يا كثواه قم بإذن الله تعالى.(181)
الأسد	صالح	لبيّك لبيّك يا صالح. (184)
الخيل	قوم صالح	كيف لا ننفر منكم وأنتم تكذّبون نبيّ الله صالح ولا تؤمنون به. (184)
الديوك	قوم صالح	يا آل ثمود آمنوا بنبيّ الله صالح قبل أن ينزل بكم العذاب. (184)
دواب (ثمود) قوم صالح	قوم صالح	جاء الحقّ من ربّنا.(186)
السبع والوحوش	صالح	يا صالح أبشر بالنصر من عند الله.(187)
الناقة	قوم صالح	لا إله إلاّ الله صالح رسول الله.(189) - أنا ناقة الله خلقني بقدرته وجعلني من آياته الكبرى. (189)
الناقة	الله	التسبيح (190). الحمد لله الّذي سقاني من عذب مائه، وجعلني حجّة على ثمود. (190).
الحيونات	النمرود	يا نمرود لا يغرّنّك ما جمعته من الأسود والأسلحة والفيلة فإنّ ذلك لا ينجيك من إله إبراهيم. (ص 201)
الطائر الأبيض	النمرود	ويلك يا نمرود هلكت وملكك فأنا طائر المغرب وهذا طائر المشرق قد جاءتنا البشارة أنّ إبراهيم قد دنا ظهوره وأنّ هلاكك يكون على يديه إن لم تؤمن برسالته. (ص201).
الحيوانات	قوم إبراهيم	فارتفعت أصوات الحيوانات بالبشارة (ص 204)
الكبش	إبراهيم	اذبحني عن ولدك فأنا أحقّ بالذبح منه، لأنّي الكبش الذي قرّبني هابيل بن آدم.(227)
الذئب	إخوة يوسف	لئن قتلتم يوسف لأجمعّن عليكم السباع فتمزّق لحومكم. (ص 232).
الذئب	نبي الله يعقوب	"يا نبيّ الله إنّي مظلوم... معاذ الله ألم تعلم أنّ لحوم الأنبياء محرّمة على الوحوش؟ وإنّي ذئب غريب من بلاد مصر جئت لزيارة أخ لي في هذه الأرض فاصطادني أولادك وجاؤوا بي إليك." (ص235).
الذئب	موسى	يا موسى والّذي أنطقني بين يديك ما علمت أنّها غنم شعيب. ولو لا أنّي جائع ما تعرضت لهذه الغنم، فتصدّق عليّ ما أسدّ به جوعي. (ص 285)

البقرة	ميشا	أيّها العبد البار بأمّه إنّ الطريق بعيد فاركبني.(ص 311)
الحمامة	سليمان	يا ابن داود أنا من حمام هذه الدار وما رزقت فرخًا أفرح به قط. (ص 331)
الخطافة	سليمان	"إنّي أدركت أباك آدم وكلّمته بلغة ثمّ كنت مع نوح في السفينة وكلّ خطاف على وجه الأرض من نسلي وكلّمته بلغته وكلّمت إبراهيم بلغته وإن كان آدم حمّلني رسالة إليك وقال لي إنّك ستدركين ولدي سليمان ويطيع الله تعالى له كلّ شيء فأقريه منّي السلام وإنّه علمني سورة من القرآن ". ثمّ قرأت عليه سورة الفاتحة إلى آخرها فسجد سليمان شكرًا لله تعالى".(ص 337)
النسر	سليمان	"قال السلام عليك يا ملك الدنيا أنا أوّل من صحب أباك آدم عند هبوطه إلى الأرض وكنت أساعده على بكائه وأشرب من دموعه ولم أزل معه حتّى تاب الله تعالى عليه وانتهيت إلى زمن إبراهيم عليه السلام وتعلّمت منه "اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا."(القرآن4: 87). (ص 337)
العقاب	سليمان	يا نبيّ الله إنّ الله تعالى خلقني أعظم ممّا ترى غير أنّ حزني على هابيل حين قتله قابيل صيّرني إلى ما ترى ولقد علّمني آدم قوله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى." (القرآن 87: 14-15)، وقد أفلح المؤمنون. فأمرني بما شئت فإنّي لأمرك طائع.(ص 337)
العنقاء	سليمان / آدم	يا نبيّ الله أعطاك الله ملكًا عظيمًا وإنّي لم أظهر لأحد قبلك إلاّ لأبيك آدم، فلمّا رآني قال لي: ما أشبهك بطيور الجنّة، فقلت له: إنّي خلقت قبلك بألفي عام وتبخرت بين يديه فقال لي: إنّك لتعجبين بنفسك والعجب يهلك صاحبه ولقد فاز المفلحون وخسر المبطلون. (ص 337)
الغراب	سليمان	- لقد فضّلك الله على كثير من خلقه ولقد خلقني الله تعالى شديد البياض حتّى سمعتهم يقولون اتّخذ الله ولدًا وما ينبغي للرحمان أن يتّخذ ولدًا فصرت إلى ما ترى ولقد دعا لي أبوك آدم ثمّ أبوك نوح بطول العمر وسمعت آدم يقرأ: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ." (القرآن 74: 38) (ص 337) - يا نبيّ الله هذا مسكني وأنا آتيك من هذا البعد ولذلك أنا ناقص البدن قليل الريش، [...] لأنّه مسقط رأسي أغدو منه خميصًا وأعود إليه بطيئًا.(ص 354)
الحمامة	سليمان	يا رسول الله أنا الحمامة التي اتّخذني أبوك آدم إلفًا وكان

		يتأسّف على الجنّة ولقد سمعته يقول لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، وإنّي قد أمرت بالطاعة لك فأُمرني.(ص 337)
الهدهد	سليمان	يا نبيّ الله أما علمت أنّ الله كتب الخير والشر على الخلائق ولقد سعد من سعد وشقي من شقي وإنّ القضاء إذا نزل لا تغني الحيلة شيئًا. (ص 338)
الديك	سليمان	يا غافلين اذكروا الله. وقال: يا نبيّ الله إنّ الله تعالى أنزلني إلى أبيك آدم أوقظه للصلاة وكنت مع نوح في سفينته أوقظه للصلاة وكذلك كنت مع إبراهيم. وسمعت إبراهيم يقرأ حين أهلك الله تعالى نمرود: "قُلِ اللهمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنّك عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ." وإنّي إذا صحت في بقعة تفرّقت منها الشياطين.(ص 338)
الذئب	الشيخ الكبير	احفظ هذا الغلام حتّى تجد يونس بن متّى فسلّمه إليه فإنّه ولده. (ص 367)

نقف من خلال تدبّر ما ورد في الجدول السابق عند ظاهرة الاحتفاء بالتحوّل الّذي طرأ على الحيوان في مستوى النطق، وبكثافة الأمثلة. فكأنّ المسألة باتت تجري مجرى البداهة، فلا تكاد قصّة من القصص تخلو من هذه الظاهرة. وسنحاول في ما يلي تحليل الخطابات الواردة على ألسنة الحيوانات، قصد فهم النسيج الفكريّ الواقف وراءها، ومعرفة أنسجة المتخيّل في النصوص القصصيّة.

- **الحيوان يتكلّم بدين الإسلام: (أسلمة الحيوان/ أسلمة التاريخ)**

يجعلنا التوقّف عن محتويات الخطاب الوارد على ألسنة الحيوانات، على اختلاف أنواعها والفترة الحاضنة لحيثيات القصّة، نقف عند كائنات تنطق بحكمة الإسلام وتفكّر بطريقة أصحابه. فالخطافة تقرأ فاتحة الكتاب أمام سليمان، وكذلك الغراب يقرأ الآية 38 من سورة المدّثر والعقاب يقرأ الآيتين 14 و15 من سورة الأعلى، والنسر يقرأ الآية 87 من سورة النساء، والحيّة تسبّح الله وتقدّسه، والناقة تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ صالحًا رسول الله. وتعدّ هذه الظاهرة مولدة للعديد من الأسئلة، فما القصد من أن تقرأ بعض الحيوانات آيات من القرآن على رسل وأنبياء وجدوا تاريخيًّا قبل ظهور القرآن؟ وما القصد من وراء تخلّقها بخلق الديانة الإسلاميّة؟

تبدو لنا الصورة في وضعها القصصي طبيعيّة، وليست في حاجة إلى تأويل أو تفكير، فهي منسجمة مع النسيج النصيّ، ومنتجة لمتعة الحكي. غير أنّ الأمر بخلاف ذلك يتطلّب وقفةً وتدبّرًا. فقد غُيّب السبق التاريخيّ وتوالدت الصور في بوتقة من الوحدة والتشابه، واختلفت أسماء الحيوانات لكنّها حافظت على وحدة الصورة

والتمثّل. والجامع بينها وحدة المعتقد ووحدة الديانة. فهي تدين بدين الإسلام، وتعتقد في وحدانيّة الله. إنّها قدرة القاص على اختراق الخطّ الزمني وتشكيل التاريخ البشري وفق تصوّره العقدي، الّذي يلامس في جوهره التصوّر الجمعي. فيتحوّل الحيوان من مجرّد كائن إلى وعاء يحمل فكرًا وعقيدةً. ولا نفهم ذلك إلاّ متى استحضرنا مقام المقال، فالغرض من القصص غرض دينيّ، وإيراد القصّة وروايتها إنّما هو للتذكير والموعظة. وهو ما يعني أنّ المشترك الديني في محمولات الخطاب الموجّه من المرسِل إلى المرسَل إليه، يجعل المضامين تدور في فلكه، فالإسلام هو المنطلق والمنتهى. وهو الغاية التي وجد من أجله الوجود وما فيه.

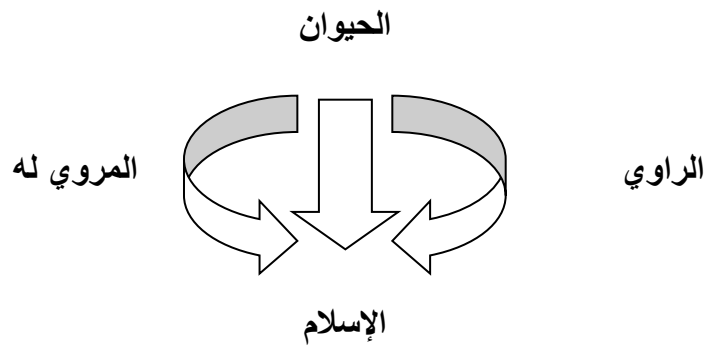

فلا دين للحيوان سوى الدين الإسلامي الّذي اعتنقه على الفطرة. ويتجلّى ذلك بصورة أوضح في الرواية التي أوردها الثعلبي في "قصّة بلوقيا": "فإذا هو بأربعة من الملائكة أحدهم رأسه كرأس الثور، والآخر رأسه كرأس النسر، والثالث رأسه كرأس الأسد، والرابع كرأس الإنسان. فأمّا الملك الّذي رأسه كرأس الثور فإنّه يقول: [...] واجعلني من أهل شفاعة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم يوم القيامة. وأمّا الّذي رأسه كرأس النسر فيقول: [...] واجعلني من أهل شفاعة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم يوم القيامة. وأمّا الّذي رأسه كرأس الأسد فيقول: [...] واجعلني من أهل شفاعة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم يوم القيامة. وأمّا الّذي رأسه كرأس الإنسان فإنّه يقول: لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، اللهمّ ارحم المسلمين ولا تعذّبهم، وادفع عنهم النار، واجعلني من أهل شفاعة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم يوم القيامة."[27] فهذه القصّة نجدها منفتحة على نصّ سبقها، ورد في سفر الرؤيا: "وَفِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَحَوْلَهُ أَرْبَعَةُ كَائِنَاتٍ تَكْسُوهَا عُيُونٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الأَمَامِ وَمِنَ الْخَلْفِ: الْكَائِنُ الأَوَّلُ يُشْبِهُ الأَسَدَ، وَالثَّانِي يُشْبِهُ الْعِجْلَ، وَالثَّالِثُ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ وَجْهِ إِنْسَانٍ. أَمَّا الْكَائِنُ الرَّابِعُ فَيُشْبِهُ النَّسْرَ الطَّائِرَ."[28] وهو ما يعني أنّ الثعلبي قد استمّد هذه الصورة من الإنجيل، وأخرجها

[27]- الثعلبي: قصص الأنبياء، ص 359

[28]- الرؤيا (4: 7-8)

من سياقها العقدي ليضفي عليها مسحة دينيّة إسلاميّة. ففي سياقها العقديّ المسيحيّ مثّلت هذه الكائنات رموزًا للرسل الأربعة (متى، يوحنا، مرقس، لوقا) غير أنّ الثعلبي جعلها تتمنّى الشفاعة من رسول الإسلام محمّد. س

وهنا تظهر ملامح الخطاب المتواري خلف المنطوقات القصصيّة، إنّه خطاب الدعوة والتأسيس، الخطاب المركزي الّذي أُسست لبناته على مقولة "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ."[29] "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ."[30]. وهنا تظهر ملامح الخطاب القائم على إقصاء الآخر ونفي هويّته وتاريخه، فكلّ الوجود مسخّر ليكون في فلك الإسلام. إنّه منطق صراع الهويات، فالديانات السابقة ليست إلا بعض صدى الإسلام، وقد عبّر محمّد محمود عن هذه الظاهرة باستعمال مصطلح "توليد التطابق."[31] فصورة الإسلام تصبح بمثابة القالب الّذي يتحكّم في تشكّل بقية الصور الثقافيّة الأخرى، فتغيب الخصوصيات الثقافيّة عن المخالف دينيًّا وتاريخيًّا، ويذوب منتوجه الثقافيّ في رحاب المركزيّة الإسلاميّة.

- **الحيوان الداعية والواعظ:**

ومن أبرز التحوّلات في مستوى إنطاق الحيوان، أن يتحوّل الحيوان إلى واعظ للإنسان ومرشد له، فيظهر الأوّل في مظهر العاقل والثاني في مظهر من غاب رشده. فالحيوانات أمرت آدم بالتسبيح، والديك ينادي الناس إلى الصلاة، والمواشي تلوم النمرود، والسباع تدعو على آل ثمود وتطلب من الله أن يرسل فيهم رسولاً، والديوك تدعو آل ثمود للإيمان بنبيّ الله ورسوله صالح إلخ...

الوضع الطبيعي / الحيوان: غير عاقل ≠ الإنسان عاقل.

الوضع بعد التحوّل/ الحيوان: عاقل ≠ الإنسان غير عاقل.

يقول حمّادي المسعودي في قراءة هذه الوضعيّة القصصيّة: "هكذا تتغيّر الأدوار عن طريق هذا التحوّل فيقوم الكائن المتحوّل بما كان على النبيّ أن يضطلع به، فالنبيّ في الأصل هو الّذي يعظ ويحذّر من عواقب الأمور، لكنّ الرواي يجعله يتخلّى عن هذا الدور مؤقّتًا ليؤديه كائن لم يكن المرويّ له ينتظر منه مثل هذا الفعل.

---

[29]- القرآن (3: 19).

[30]- القرآن (3: 85).

[31]- "يقدّم لنا النصّ القرآنيّ في استعراضه للأنبياء الّذين سبقوا محمّدًا نظرة تتميّز بخاصية يمكن وصفها بـ"الثبوتيّة"، ونعني بذلك أنّ النصّ القرآنيّ يعرض رسالات ذات جوهر واحد ثابت، وأنّ هذا الجوهر يتطابق مع الجوهر الّذي تمثّله رسالة الإسلام، أي أنّ النصّ القرآنيّ يولّد تطابقًا بين "حاضر" ما يعبّر عنه النظام العقدي الإسلاميّ ويدعو له ومجموع "الماضي" الذي تشكّله سلسلة طويلة من الرسالات السابقة لهذا النظام، وهذا هو ما عنيناه بـ"توليد التطابق". محمود (محمّد): من الموازاة إلى النفي: حول مركزيّة مؤسسّة النبوّة في الإسلام، مجلة مواقف عدد 68

إنّ الراوي يسعى إلى خلق كون كلّ ما فيه عجيب، تتبّدل فيه طبيعة الأشياء، وتتحوّل فيه الأدوار والوظائف، وينشأ من كلّ ذلك المتعة والعظة في آن."[32] وما الحيوان الناطق في واقع أمره غير بوق ينفث عبره القاصّ (الراوي) خطابه الوعظيّ في جوّ من متعة المتخيّل الّتي تحرّك لبّ المتقبّل (المرويّ له). وتدخله أكثر في رحاب المقدّس. وتحرّك فيه غريزة التفوّق المبطنة التي تهزّ أركانها تفاصيل القصّة، التي يتحوّل فيها المتفوَّق عليه إلى مصدر عظة ولوم وتوبيخ، فالفرس الّذي سخّره الله ليكون مطيّة لآدم يغضب من راكبه ويلومه "وجعل فرسه الميمون ينادي يا مغرور أهكذا كان العهد بينك وبين ربّك."[33] والنملة التّي وبّخت سليمان: "وحُكي أنّ نملة دبت على سليمان فحملها ورمى بها، فوقعت النملة، فقالت: ما هذه الصولة؟ وما هذا البطش؟ أما علمت أنّي أمَة من أنت عبده؟ فغشي على سليمان، فلمّا أفاق قال: ائتوني بها، فأتوه بها، فسألها، فقالت له: جلدي رقيق، وبدني ضعيف، وأخذتني ورميتني. فقال لها سليمان: اجعليني في حلّ فإنّي لم أقصد ذلك، فقالت: بشرط أن لا تنظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولا تستغرق في شهواتك وضحكك، ولا يستعين أحد بجاهك إلاّ بذلته له، قال: قد فعلت ذلك، قالت: فأنت في حلّ."[34] فكي نفهم التحوّل في جوهره، علينا أن نفكّك طرفي المعادلة فنغيّر الطرف الثاني فيحلّ محلّ المخاطب في القصّة كلّ واحد من الحضور المتقبّل للرواية، عندها نفهم أنّ الخطاب يتجاوز دوائره الضيّقة ليصبح خطابًا شاملاً، فالخطاب الّذي وجهه الفرس إلى آدم أو النملة إلى سليمان، يمكن أن يقبله كلّ فرد من المتقبّلين للرواية على أنّه خطاب موجّه إليه. وهذا هو الهدف الّذي يرومه القاصّ في الثقافة الإسلاميّة.

- **الحيوان مبشّر ونذير**

يطالعنا الحيوان من خلال ما نسب إليه من خطاب متّخذًا هيأة المبشّر والمنذر، فالسباع والوحوش تبشّر صالحًا بالنصر: "يا صالح أبشر بالنصر من عند الله." والحيوانات ترفع أصواتها ببشارة مولد إبراهيم. فنجد أنفسنا أمام ثنائيّة (مبَشِّر ومبشَّر) يمثّل الحيوان طرفها الأوّل والإنسان طرفها الآخر. والبشارة كما هو معروف خبر سار يُزفّ إلى الإنسان فيكون مصدر فرح وبشر.

المبشِّر [الحيوان (السبع والوحوش)] _____ المبشَّر (صالح).

[32]- المسعودي (حمّادي): فنّيات قصص الأنبياء في التراث العربي، ص 425

[33]- الكسائي، م، ن، ص 127.

[34] - قصص الأنبياء للثعلبي، ص 295.

المبشِّر (الحيوانات)_____ المبشَّر (قوم إبراهيم).

تأخذنا هذه الثنائيّة إلى الوقوف عند ظاهرة التحوّل مدار بحثنا في هذا القسم من العمل، وهو تحوّل سندرسه في مستوى تحليل البشارة. ففي المعادلة الأولى يتّخذ أحد أنبياء الله ورسله موقع المبشَّر، فالسبع والوحوش تبلّغ رسول الله قرب قدوم النصر. فإذا اعتبرنا الخطاب الوارد على ألسنة السبع والوحوش رسالة، فإنّنا سنضطرّ حينها إلى الوقوف عند أرقى أنواع التحوّل. وهو أن يحتّل الحيوان مكانة الملك الوسيط

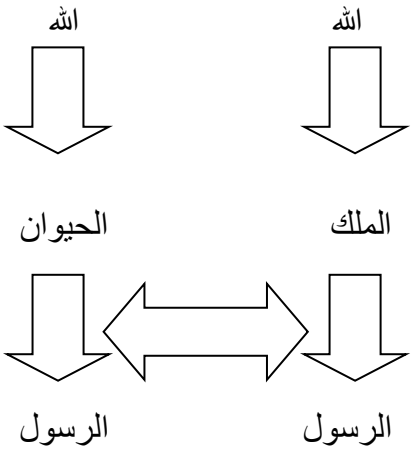

فالحيوان مطّلع على الغيب ومبشّر بالمستقبل، ووسيط بين الله والإنسان. تنقلب المفاهيم والأدوار، وإذا برسول الله يتلقى رسالة ربّه على ألسنة الحيوان. ولا نرى هذا الأمر قد خفي على الراوي، فجعله جموح ملكة الخيال يتجاوز الممنوع، وإنّما كانت فكرة البشارة التي أوردها على ألسنة الحيوان وليدة الفعل الاسترجاعي للقصّة. فانتصار صالح وقع حسب الرواية القرآنيّة، والراوي في هذا المقام -وهو يسترجع التاريخ- مكّن الحيوان من الحقيقة وأخرجها على لسانه لتجري مجرى اليقين.[35]

أمّا في مستوى البشارة الثانيّة (الحيوانات/ قوم إبراهيم)، فإنّ الرواي لم يورد نصّ البشارة واكتفى بذكر الفعل، فالتحوّل على مستوى النطق قد حصل. وكأنّنا بالرواي ركّز على الحالة الوجدانيّة للحيوانات دون الخطاب، لأنّ الغاية من القصّة ذكر ما أحدثه ميلاد إبراهيم من تغيير في الكون. فالحيوانات فرحت بقدومه، وذلك من باب التنبّؤ. وهذا التحوّل يبقى في سياق ما يحدثه ميلاد الأنبياء والرسل في الكون من تغييرات. يورد

[35]- لم نذهب إلى القول بأنّ الراوي ساوى بين الملك والحيوان على الرغم من أنّ بعض الأدلّة على ذلك ممكنة، فقد أورد الكسائي: "فأوّل من يسمع ذلك ملك من الملائكة على صورة الدّيك له ريش وزغب أبيض رأسه تحت أبواب الرحمة ورجلاه في تخوم الأرض السّفلى وجناحاه منشوران لا يعلمهما إلاّ الله تبارك وتعالى." م.ن، ص 137

الكسائي في "حديث هود عليه الصّلاة والسّلام": "قال فتباشرت البقاع والبحار والبهائم بحمل هود واخضرّت الأشجار وأزهرت وأثمرت في غير أوانها."[36]

نخلص من خلال الوقوف عند ظاهرة إنطاق الحيوان، وإكسابه من الصفات الخطابيّة ما يجعله يضاهي الإنسان ويتفوّق عليه في بعض الأحيان، عند مسألتين تتمثّل الأولى في كون هذه الحالة جرت في قصص الأنبياء مجرى الثابت، فهي وإن كانت محفوفة بالعجيب وخرق العادة فإنّ تكرارها أكسبها بعدًا جماليًّا جعلها أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال. أمّا المسألة الثانيّة فتتمثّل في كون هذا التحوّل الّذي خضع له الحيوان يحمل بين طيّاته رؤيّة دينيّة عميقة، رام من خلالها الراوي أن يجعل هويّات التاريخ البشريّ تتشكّل في هويّة واحدة هي الهويّة الإسلاميّة. فرأينا كيف يتحوّل الحيوان من خلال خطابه إلى داعية وخطيب باسم الله والدين المحمّدي. إنّه تحوّل يجمع بين طيّاته متعة المتخيّل ودهاء المتحيّل.

2/2: الحيوان يفقد هيأته الأولى:

لئن تمّ اعتبار التحوّل في مستوى إنطاق البكم من أهمّ التحوّلات التي شهدها الحيوان في قصص الأنبياء، فإنّ التحوّل في مستوى الهيأة الجسمانيّة لا يقلّ شأنًا. وعادةً ما يعرف هذا التحوّل سبيلين، فإمّا أن يكون تحوّلاً إيجابيًّا وإمّا أن يكون سلبيًّا، والفرق بينهما أنّ الأوّل وليد غضب وعقاب، والثاني وليد تكريم وتشريف. فالحيوان يحافظ على هويّته الاسميّة لكنّه يخرج عن الهيأة الأصل، وسنعمد في هذا السياق إلى الوقوف عند نموذجين هما: الحيّة والغراب، لأنّهما من أشهر الحيوانات التي عاشت هذه الحالة.

- **الحيّة والتحوّل السلبيّ:**

- **قراءة في الصورة الأصل: جمالها عربّي الهويّة.**

ورد حديث عن الحيّة في قصص الأنبياء، في ثنايا الحديث عن قصّة الخطيئة الأولى، فهي وإن غابت عن الخطاب القرآنيّ نجدها حاضرة بصورة فاعلة في مستوى النصوص الحواف. فهي كائن من كائنات الجنّة تعيش صحبة آدم وحوّاء، تؤنسهما وتسامرهما، وتخبرهما بكلّ شجرة في الجنّة: "قال كعب رضي الله عنه: كانت الحيّة يومئذ على صورة الجمل ولها قوائم كقوائم الجمل ولها زغب كالعبقري ما بين أبيض وأحمر وأسود

[36]- الكسائي: م.ن، ص 168

وأخضر ولها عرف من لؤلؤ وأنياب من ياقوت وعينان كالزهرة والمشتري ورائحتها كالمسك والعنبر وكان مسكنها الجنّة، ومبركها على شاطئ نهر الكوثر وأكلها من زعفران الجنّة وشرابها من ذلك النهر."[37]

تطالعنا الحيّة في هذا الوصف الّذي قدّمه الكسائيّ في أحسن حال وفي أحسن صورة، فقد منّ الله عليها بأحسن ما يكون المنّ. ولكن ما يستوقفنا في هذا الوصف تشبيه الحيّة بالجمل[38]، فهل يعود ذلك إلى أنّ الجمل مثال للجمال في ثقافة الراوي؟ أم أنّ للصورة أبعادًا أخرى؟

حتّى نأنس إجابة على هذا الإشكال عوّلنا على العودة إلى المدوّنة الشعريّة العربيّة، بحثًا عن مكانة الجمل فيها، وطبيعة علاقته بالدارج الثقافيّ. فوجدنا له حضورًا مميّزًا في السياق الثقافي العربيّ فقد "عني (الشاعر) بتصوير البعير بمختلف جزئياته وصوته ومختلف أعضاء جسمه وكيفيّة سيره إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنمّ عن اهتمام واضح وعناية كبيرة بمحاولة تقريب صورته إلى الأذهان وتكشف عن حقيقة مكانته وقيمته في حياة الشاعر الجاهليّ على وجه الخصوص."[39] وقد اهتمّ الشعراء بوصف جسم البعير، فركزّوا على بعض الأعضاء دون غيرها "فوصفوا قوائمه بالقوّة والسّرعة، ووصفوا مرفقيه فجعلوا ما بينهما واسعًا منفرجًا حتّى إنّ الريّح تجري فيها لاتّساع الفرجة بين الفخذين وذلك محمود عند الإبل."[40] ومن بين الشعراء الذين اهتّموا بوصف الجمل نذكر الحطيئة الّذي خصّه بقصيدة: [الطويل]

وَإِنْ خَافَ مِنْ وَقْعِ المُحرّمِ يَنْحَنِي ... عَلَى عَضُـــدِ رَيَّا كَسَارِيَـةِ القَصْرِ
تَلَتْهُ فَلَمْ تُبْـــطِئْ بِهِ مِـــنْ وَرَائِهِ ... مُعَـــقْرَبَةٌ رَوْحَـــــاءُ رَيِّئَةُ الفَتْرِ
إِلَـى عَجُـزِ البَابِ شُـدَّ رِتَاجُـــهُ ... وَمُسْتَلْعٍ فِي الكُورِ فِي حُبُكِ سُمْرِ.[41]

فقد ألحّ في قصيدته هذه على "تبليغ معنى الفخامة والعظم في جسم الجمل الشاملة لسائر أعضائه من عضد شبّهه بسارية القصر في الطول والفخامة ومن رجل وصفها بالشدّة والصلابة."[42] وليس بغريب أن تمتّد هذه الصورة وهذا التمثّل إلى الموروث الثقافيّ العربيّ، وأن يصبح الجمل رمز البداوة والعرب مضربًا للمثل

[37]- الكسائي، م.ن، ص 119
[38]- والأمر نفسه نجده مع الثعلبي: "وإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عظمًا وفي الطول ما شاء الله." ص 355
[39]- الشاوش (بسمة نُهى)، وصف الحيوان في الشعر الجاهلي، ص 72
[40]- م.ن، ص ص 72-73
[41]- ديوان الحطيئة، ص 127
[42]- الشاوش (بسمة نُهى)، ص 73

في الجمال وحسن الخلق. وهو ما تجلّى في المقاربة التي قدّمها الكسائيّ في وصفه للحيّة التي جعل فيها جمالها ذا هويّة عربيّة.

ثمّ حشد الخيال كلّ طاقته لتكتمل الصورة، فتداخلت الألوان وتعدّدت، وغلب عليها عامل الإشعاع والنور. وقد امتدّ هذا الإشعاع من الحيّة إلى المكان والطعام. وهي ألوان لم يكن اختيارها اعتباطيًّا وإنّما كان خاضعًا لمكانة هذه الألوان في الثقافة العربيّة (ثقافة الراوي) "فقد عرف العرب من الألوان الأساسيّة الأبيض والأسود والأحمر والأخضر والأصفر."[43] فاستعمال الراوي لهذه الألوان دلالة على تأكيد رسم ملامح عربيّة للحيّة. ولا يفوتنا أنّ المقام مقام حكي، حيث يكون للصورة وقعها الخاصّ، فالمتقبّل يحاول تمثّل المرويّ وفق نشاط تصوّر ذهنيّ تقع فيه المرويات وقع الصورة. وفي السياق نفسه شبّه عين الحيّة بـ"الزُّهرة"، و"الزهرة من المعبودات الكوكبيّة التي انتشرت عبادتها على نطاق واسع، والزُّهرة تعبّد لها أكثر العرب، وهي كوكب "السعد" عندهم، وكانوا يتفاءلون بها."[44] حتّى يجعل كلّ التفاصيل عربيّة الهويّة.

إنّ ما نخلص إليه من خلال التمثّل التصويريّ الّذي قدّمه الكسائي للحيّة قبل التحوّل، أنّها كائن حظي بنعمة الجمال والتكريم، وأنّها ذات ملامح عربيّة في جمالها.

- **قراءة في صورة التحوّل: أسلمة المرجع.**

مثلما صوّرت كتب القصص هيأة الحيّة قبل عمليّة المسخ، صوّرتها بعدها. أورد الثعلبي في مؤلفه عرائس المجالس: "وعاقب الحيّة بخمسة أشياء: قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب، وجعل غذاءها التراب، وجعلها تموت كلّ سنّة بالشتاء، وجعلها عدوّة بني آدم، وهم أعداؤها حيثما يرونها يقتلونها، وأباح رسول الله (ص) قتلها في الصلاة وفي حال الإحرام. [...] سمعت رسول الله (ص) يقول: "من قتل حيّة فكأنّما قتل رجلاً مشركًا قد حلّ دمه."[45] تتداخل المعاني في هذه الرواية وتتشابك المفاهيم، فما هو مصدر الرواية التي نقلها الثعلبي؟

تعود الرواية التي قدّمها الثعلبي في شأن مسخ الحيّة إلى الكتاب المقدّس، وتحديدًا إلى سفر التكوين الأصحاح الثالث: "فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ

[43]- خليل (إبراهيم محمود)، ألفاظ الألوان ودلالاتها عند العرب، دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلّد 33، العدد 3، 2006، ص 443

[44]- كدر(جورج)، معجم آلهة العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، ط1، 2013، ص 128

[45]- الثعلبي، قصص الأنبياء، ص 35

الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ."[46] غير أنّه أخرج الرواية من سياقها النصّي وأخضعها إلى تغييرات في مستوى بلورتها، فجمع بين نصين متعارضين (نصّ من **الكتاب المقدّس** وحديث نبويّ) وهذه خاصيّة يتميّز بها رجال الدين المسلمون، فهم يقيمون أعمالهم في المجال الدينيّ على تقنيّة الاختيار والتطويع، فما يخدم عقيدتهم أو فكرتهم لا يرون حرجًا في استئصاله من سياقه الأصليّ وتطويعه لسياق نظرتهم، أو ما يمكن تسميته بعمليّة "أسلمته".

- **الغراب: (غراب الله) تحوّل الهيأة بتحوّل الوظيفة**

يعرف الغراب في وضعه الطبيعيّ بكونه طائرًا أسود اللون، وهو رمز نذير شؤم في الثقافة العربيّة "ليس في الأرض شيء يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه وأنكر حتّى أصبحوا يذكرونه مصاحبًا لكلّ ما يتطيّرون منه فهو المقدّم في الشؤم. ومن أجل هذا أصبح كلّ جزء منه مدعاة للتطيّر، فاشتقّوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب وتشاءموا من صياحه واعتبروه نذير البعد ودليل فرقة."[47] غير أنّنا في قصص الأنبياء نألف تحوّلاً في هذه الصورة، وهو تحوّل إيجابيّ يخرج به من دائرة السلبيّة التي رسمتها له النصوص الثقافيّة القديمة "فإذا هو طائر كأنّه غراب رأسه أبيض وظهره أخضر وبطنه أسود وهو أحمر الرّجلين والمنقار وأخضر الجناحين في أذنيه حلق الذّهب وفي عنقه درّة معلّقة بسلسلة من ذهب، فقالت للطّائر: ما أحسنك وأحسن خلقك لقد كنت عزيزًا على أهلك فلم هربت منهم؟ فقال الطّائر ما هربت من صاحبي ولكنّي الغراب الّذي بعثني الله إلى قابيل حين قتل أخاه هابيل فأريته كيف يواري سوأة أخيه. وإنّما شاب رأسي حين قتل قابيل أخاه هابيل وأمّا حمرة منقاري فإنّي غمسته في دم هابيل وأمّا خضرة ظهري فمن لمس الملائكة والحور العين، وأنا من طيور الجنّة."[48]

كانت التحوّلات التي طرأت على هيأة الغراب في مستوى اللون والفعل، أمّا في المستوى الأوّل فلا نجد حديثًا عن اللون الأسود إلاّ في مستوى جزئيّ، وهو لون البطن، مع حضور لألوان أخرى مثل: الأخضر والأحمر والأبيض، وقد عمد الراوي إلى جعل الغراب يفسّر ظاهرة التحوّل هذه، فربط كلّ لون منها بحدث تاريخيّ مقدّس. فقد اكتسب الغراب تحوّلاً في المظهر حتّى يكون مميّزًا عن غيره من الغربان، فهو رسول الله.

---

[46]- التكوين (3: 14-15).

[47]- قيسي (نوري حمودي)، الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص ص 195-196

[48]- الكسائي، م.ن، ص 181

وكلّ ما له علاقة بالله في الثقافات الدينيّة يجب أن يكون مخالفًا للطبيعيّ ومنخرطًا ضمن دائرة الغريب والعجيب. أمّا المستوى الثاني من التحوّل فقد رسمه الراوي في مستوى الفعل، فالغراب يتحوّل من علامة على البين والفراق إلى علامة على اللقاء والتواصل. فقد ساعد امرأة كاثوه في العثور على زوجها: "فما بالي أراك باكيةً؟ فقالت: إنّي فقدت بعلي من مائة سنة. فقال: أتحبّين أن أرشدك إليه؟ فقالت: ومن لي بذلك؟ فقال: اتبعيني [...] حتّى أوقفها على باب الغار الّذي فيه كاثوه، ثمّ ناداه يا كاثوه قم بإذن الله تعالى."[49] فالغراب الّذي ألفناه في قصّة الطوفان يخون سيّده "ثمّ بعث الغراب ليكشف له الأرض فأبطأ عليه لأجل جيفة وقف عليها."[50] فالتحوّل الّذي شهده الغراب اقترن بطبيعة علاقته بالمقدّس، فهو رسول الله وصفيّه من بين الطيور. وهنا يبدو لنا القياس الضمني بين المصطفى من البشر والمصطفى من الحيوان.

- **البقرة الشرّ (البقرة السبع)**

ورد في **الكتاب المقدّس** و**القرآن** حديث عن الحلم الّذي رآه فرعون مصر في منامه، فكان الحديث عن سبع بقرات سمان وأخرى عجاف، وقد التهمت الثانية الأولى. ولم تتوغّل المادة الحكائيّة الواردة في النصوص المقدّسة في التفاصيل قدر ما اهتمت بالحدث. غير أنّ بعض النصوص الحافة وإن عملت على الحفاظ على الحدث وعدد البقرات، فإنّها اشتغلت على التوسّع في بعض التفاصيل. وخاصّة تلك المتعلّقة بصورة البقرات، ولا يمكننا الوقوف على ذلك إلاّ بتحديد الصورة في النصّ الأم، ورد في سفر التكوين: "وَبَعْدَ انْقِضَاءِ سَنَتَيْنِ رَأَى فِرْعَوْنُ حُلْماً، وَإِذَا بِهِ وَاقِفٌ بِجوَارِ نَهْرِ النِّيلِ وَإِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ حِسَانِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَاتِ الأَبْدَانِ، صَاعِدَاتٍ مِنَ النَّهْرِ أَخَذَتْ تَرْعَى فِي الْمَرْجِ، ثُمَّ إِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ أُخْرَى قَبِيحَاتِ الْمَنْظَرِ وَهَزِيلاَتٍ تَصْعَدُ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ وَتَقِفُ إِلَى جوَارِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ. وَالْتَهَمَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَاتُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَاتِ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَاتِ."[51] وورد في سورة يوسف من القرآن: "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ."[52] ففي النصّين تركيز واضح على الاختلاف بين بقرات المجموعة الأولى وبقرات المجموعة الثانية، مع الحفاظ على الانتماء إلى فصيلة البقر. والتحوّل العجائبي الّذي طرأ كان في مستوى التهام المجموعة الثانية للأولى.

---

[49]- م.ن، ص 181

[50]- م.ن، ص 163

[51]- تكوين (41: 1-4).

[52]- القرآن 12: 43

أمّا في قصص الأنبياء فإنّ تحولاً يحدث في مستوى صورة الحيوانات، أورد الكسائي في ثنايا حديثه عن قصّة يوسف ما يلي: "رأى الملك في منامه كأنّ حوله بقرًا حسانًا لكلّ واحدة منهنّ بطن من حديد وضرع يشخب لبنًا، فبينما هو ينظر إليهنّ إذ أقبلت من بعدهنّ سبع بقرات كالصياحي يخرج من أعينهنّ شرر النيران ولكلّ بقرة منهنّ قرن في مقدّم رأسها كالرمح الطويل فلمّا رآهن الملك خاف منهنّ وأقبلت البقر المهازيل إلى البقر الحسان فأكلت كلّ واحدة من المهازيل واحدة من الحسان، ثمّ بعدن عن الملك".[53]

البقرة
(تحوّل إيجابي) البقرة سمينة وبطنها من حديد
≠
(تحوّل سلبي) ضعيفة ولها قرن في مقدّم رأسها، يخرج من عينها شرر النيران.

ركّز الراوي في وصفه على عنصر القوّة والقبح الّذي تميّزت به البقرات العجاف، فتغيّر شكلها وخرجت عن وضعها الطبيعيّ، فمسخت صورتها فتغيّر موضع القرون وعددها، وأصبحت العيون التي يضرب بها المثل في الجمال والصفاء مصدرًا لشرر النيران. وتتضح الصورة أكثر مع الثعلبي الّذي أورد في السياق نفسه: "فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غير ملصقات البطون ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، ولهنّ أنياب وأضراس وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان وافترسنهنّ افتراس السباع وأكلن لحمهن ومزّقن جلودهنّ وحطمن عظامهن ومششن مخهنّ."[54] فالبقرة تتحوّل إلى سبع، أي من حيوان عاشب إلى حيوان لاحم.

ويعود هذا الحشد في الأوصاف حسب رأينا إلى طبيعة المقام، ففي القصّ يحاول الراوي شدّ أنظار المتقبلين. فكلّما أوغلت العبارة في العجيب، وتوالدت المعاني بعضها من بعض كانت عمليّة القصّ أمتع وأنجع. فإن حاولنا التوغل في التفاصيل أكثر من خلال الوقوف عند ظاهرة التحوّل التي طرأت على صورة البقرات العجاف، سنجد أنّ الراوي يحاول جاهدًا الهروب بالصورة أكثر نحو القبح والتنفير النفسيّ. وذلك لاعتبارها تمثّل في سياق المرويّ صورة الشر، فتتحوّل المعادلة (جمال ≠ قبح) إلى معادلة جوهريّة (خير ≠ شر). وتعتبر هذه المعادلة الخيط الناظم لكلّ ثنايا الخطاب الدينيّ والوعظي، بل هي البؤرة المتحكّمة في كلّ السياقات وبقيّة اللبنات الثقافيّة. فيفقد الحيوان كلّ علاقة له بالخير وينخرط كليًّا في دائرة الشر. فالراوي يرسم لنا عبر تقنية

[53]- الكسائي، م.ن، ص 246
[54]- الثعلبي، م.ن، ص 128

المتخيّل صورة للبقرة السبع. وقد تتضح لنا الصورة أكثر متى فهمنا الإطار الحاف بالصورة، فالبقرات السمان خرجن من الماء أمّا العجاف فخرجن من الوحل، فالماء رمز الطهارة والحياة، والوحل رمز الدنس والموت.

هكذا نخلص إلى كون التحوّلات التي خضع لها الحيوان خلال رحلته من النصّ المقدّس إلى النصّ الهامش، خضعت في جوهرها إلى متصوّر فكرّي يرى في الكون منخرطًا بداهةً في حالة إيمانيّة. وهي وليدة آلية في التفكير ترى أنّ التعبير عن الله لا يكون إلّا بحضور العجيب. وكانت الغاية من هذا البحث التوقف على آليات اشتغال المخيّلة أثناء احتفائها بالمقدّس.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- **القرآن الكريم**، برواية حفص عن عاصم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1406هـ.
- الثعلبي النيسابوري: **قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس في قصص الأنبياء**، ط المكتبة الثقافيّة، بيروت، لبنان (د.ت).
- الكسائي (محمد بن عبد الله): **بدء الخلق، وقصص الأنبياء**، تحقيق الطاهر بن سلامة، دار نقوش عربيّة، ط1، تونس 1998.

المراجع:

- الكتاب المقدّس (الترجمة العربيّة)، "كتاب الحياة"، وهي طبعة بروتستانتيّة، صادرة عن مؤسسة العالميّة لـــ"لكتاب المقدّس" المملكة المتحدة، 1999.
- بن حمادي (صالح)، دراسات في الأساطير والمعتقدات الغيبيّة، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1983.
- طراد (فريدة)، الحيوان في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، عمل مرقون بكليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة.
- ابن كثير(أبو الفداء): البداية والنهاية، تحقيق أحمد ملحم وآخرين، دار الريان، القاهرة، ط1، 1988.
- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، دلائل النبوّة، تحقيق عبد المنعم قلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط1 1988.
- الجاحظ (أبو عمرو): كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1969.
- الأشقر (عمر سليمان عبد الله)، الجنّة والنار، دار النفائس/ دار السلام، ط1، 2008.
- المتّقي الهندي (علاء الدين علي بن حسام الدين بن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري)، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 1998.
- جمعة (حسين)، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهليّة، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريّة، 2011.
- الطّوسي (أبونصر السرّاج): اللّمع، تحقيق هند ماهر أبو العطا، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، 1998
- مسعودي (حمّادي)، فنيّات قصص الأنبياء في التراث العربي، مسكيلياني للنشر، ط1، تونس 2007.
- محمود (محمّد): من الموازاة إلى النفي: حول مركزيّة مؤسسّة النبوّة في الإسلام، مجلة مواقف عدد 68.
- الشاوش (بسمة نُهى)، وصف الحيوان في الشعر الجاهلي، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة تونس، تونس 2009.
- خليل (إبراهيم محمود)، ألفاظ الألوان ودلالاتها عند العرب، دراسات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلّد 33، العدد 3، 2006.
- كدر(جورج)، معجم آلهة العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، ط1، 2013.
- ديوان الحطيئة، رواية وشرح ابن السكيت، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية 1993.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2015

All rights reserved © 2015